مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية

Kirkuk University Journal: Humanity Studies

ISSN E:3107-3360 ISSN P:1992-1179

https://kujhs.uokirkuk.edu.iq/

Volume 21, Issue 2, June 2026 المجلد (٢١) ، العدد (٢) ، حزيران ٢٠٢٦

The Syntactic Classification of Pronouns: Between Complexity and Simplification / A Comparative Study of Pronouns in Arabic and English

Assist Prof. Dr. hussein Kadhum Challab[1] Assist Prof Dr. Alaa Shafeeq Wahab[2]
College of Arts Translation Dept[1.2]
husseinkch@uomustansiriyah.edu.iq [1] alaashafeeq.w@uomustansiriyah.edu.iq [2]

معلومات البحث
تاريخ الاستلام 15 /03/2026
تاريخ التعديل 02/04/2026
تاريخ القبول 08/04/2026
تاريخ النشر 15/6/2026
نوع البحث بحث اصيل
Doi: 10.32894/1992-1179.2026.170135.1374
IRAQI Academic Scientific Journals https://iasj.rdd.edu.iq

Abstract : Our research, entitled "The Syntactic Classification of Pronouns: Between Complexity and Simplification / A Comparative Study of Pronouns in Arabic and English," examines the criteria adopted in the syntactic and semantic classification of pronouns in their established order (first/second/third person). It highlights the importance of gender and number in distinguishing between pronoun ranks. The research concludes that pronouns in Arabic arose from the evolution of demonstratives, which then transformed into pronouns through usage. Furthermore, the dynamic, dialectal, and genetic aspects of the Proto-Semitic language played a decisive role in the development of pronouns in Arabic. The evolution of internal structure and semantic function also contributed to the classification of pronoun categories. A crucial point reached by our study is that determining the type of pronoun is not governed solely by a grammatical system, but also by the social relationships between speakers, their social backgrounds, and the degree of closeness between individuals, all of which play a role in the choice of pronoun category in discourse.

Keywords: Pronouns Classification, Arabic and English Pronouns, Proto-Semitic Language, Syntactic and Semantic Analysis, Social Context of Pronoun Use.

الباحث المسؤول : جلاب.حسين كاظم (٢٠٢٦)، التصنيف النحوي للضمائر بين التعقيد والتبسيط/ دراسة مقارنة للضمائر بين العربية والإنكليزية،

المجلد ٢١ العدد ٢ حزيران . Doi: 10.32894/1992-1179.2026.170135.1374

التصنيف النحوي للضمائر بين التعقيد والتبسيط/ دراسة مقارنة للضمائر بين العربية والإنكليزية

أ.م.د .حسين كاظم جلاب أ.م.د. الاء شفيق وهاب
كلية الاداب/ قسم الترجمة

الملخص

تناول بحثنا الموسوم بـ(التصنيف النحوي للضمائر بين التعقيد والتبسيط/ دراسة مقارنة للضمائر بين العربية والإنكليزية) دراسة المعايير المُعتمدة في التصنيف النحوي والدلالي التي استقرت عليه الضمائر بترتيبها المعروف (متكلم/ مخاطَب/ غائب) مع تسليط الضوء على أهمية الجنس والعدد في التمييز بين مراتب الضمائر، وتوصّل البحث إلى أنّ الضمائر في العربية قد حصلت نتيجة لتطوّر الإشاريات ثم تحوّلت الأخيرة إلى الضمير بِفِعل الاستعمال فضلًا عن الجانب الدينامي، واللهجي، والوراثي من اللغة السامية الأم كان الفيصل في تطور الضمائر في العربية، كما أسهم التطور في البنية الداخلية والوظيفة الدلالية في تصنيف فئات الضمائر، وهناك نقطة جوهرية توصّلت إليها دراستنا هذه وهي أنّ تحديد نوع الضمير لا يحكمه نظامًا نحويّا فحسب بل العلاقات الاجتماعية بين المتكلمين، وخلفياتهم الاجتماعية، ودرجات القرب بين الأفراد لها دور في اختيار صنف الضمير عند الخطاب. وقد جاءت الدراسة في قسمين اختصّ القسم الأول بدراسة تصنيف الضمائر في العربية، وأما القسم الثاني فاختصّ بتصنيف الضمائر في اللغة الإنكليزية.
الكلمات المفتاحية:تصنيف الضمائر، الضمائر في العربية والإنجليزية، اللغة السامية الأم، التحليل النحوي والدلالي، السياق الاجتماعي لاستخدام الضمائر.

المقدمة

تُعد الضمائر من أهم الظواهر اللغوية التي يُكشف عنها تأثير البنية النحوية من جانب، والوظائف التواصلية من جانب آخر؛ حيث إنها وحدات صغيرة في صورتها، واسعة في تأثيرها، حيث تسهم في تنظيم الإحالة في النص، وتحديد المشاركين في الحدث الكلامي، وتوزيع الأدوار بين المتكلم والمخاطب والغائب، فضلا عن دورها في تحقيق الإيجاز ودفع اللبس وحفظ تماسك الخطاب. ولأن الضمير يقوم مقام الاسم الظاهر، ويؤدي وظيفة "الاختصار الإحالي" في اللسان، فقد ظلّ موضع عناية مبكرة لدى النحاة العرب، ومجالًا حيًّا للبحث اللساني الحديث في قضايا المرجعية والاتساق النصي والوظيفة التداولية.

وتنبع إشكالية هذا البحث من ملاحظة منهجية تتكرر في الدراسات المقارنة: حين تُوصَف العربية بأنها لغة "معقّدة" في نظامها الضمائري، وتُوصَف الإنجليزية بأنها لغة "مبسّطة" أو "اقتصادية" في هذا النظام، غالبًا ما تُبنى هذه الأحكام على معيارٍ سطحي يتمثّل في عدد الصيغ أو كثرة التمايزات الشكلية. غير أنّ التعقيد اللغوي ليس مفهومًا عدديًا فقط، بل هو—في جوهره—مسألة "توزيع للوظائف" بين مستويات اللغة: فهناك لغات تُكثِّف الترميز داخل العلامة الصرفية نفسها (كما في كثير من مظاهر العربية)، ويختار البحث أن يجعل "التصنيف النحوي للضمائر" مركزًا للدراسة؛ لأن الضمائر

لا تُصنَّف شكلًا فحسب، بل تُصنَّف وفق معايير متشابكة: معيار الشخص (متكلم/مخاطب/غائب)، ومعيار العدد (مفرد/مثنى/جمع في العربية، ومفرد/جمع في الإنجليزية المعاصرة)، ومعيار الجنس (تذكير/تأنيث بتوزيع واسع في العربية، وبحصر نسبي في الإنجليزية في ضمائر الغائب المفرد). وتتضاعف أهمية هذه المعايير حين نلاحظ أن العربية تُدخل الضمير في شبكة اتصال وثيق بالفعل والاسم والحرف عبر نظام المتصل والمنفصل، بينما تتجه الإنجليزية غالبًا إلى إبقاء الضمير وحدة مستقلة، وتعويض ضعف العلامة الصرفية بالترتيب التركيبي وتمايز مواضع الضمائر داخل الجملة. وتتأسس مشكلة البحث كذلك على بعدٍ تاريخي–بنيوي: فالقسم العربي من الدراسة يبرز أن الضمائر في العربية ارتبطت—بحسب عدد من الدارسين—بتطور الإشاريات وتحولها إلى ضمائر بفعل الاستعمال، وبمسار ساميّ وراثي ولهجي وديناميّ أسهم في استقرار الصيغ وتوزعها. وفي المقابل، يقدّم القسم الإنجليزي صورةً لتحول بنيوي طويل: من الإنجليزية القديمة ذات النظام الصرفي الأثرى (حالات إعرابية وتمييز جندري أوسع ومثنى حاضر في الضمائر) إلى الإنجليزية الحديثة التي تميل إلى التحليل وتقليل العلامات الصرفية ورفع العبء عن "الصيغة" لصالح "التركيب" و"السياق"، متأثرةً بالاحتكاكات اللغوية والتحولات الاجتماعية والتاريخية.

ولكن البحث لا يستقر عند ذلك، فإنه يحاول أن يبسط مجال النظر ليشمل ما قد يعرّف ذلك العلم الاجتماعي والتداولي للغة: "أن الضمائر ليست مجرد الوحدات النحوية التي تُستعمل في الكلام، بل هي أيضًا 'مؤشرات اجتماعية' تستعمل لتحديد المسافة بين المتكلمين، صنع الانتماء، بناء السلطة/تقليصها، تحويل الخطاب إلى فرد/جماعة، اختيار صيغ تواصلية قد تكون أكثر تحكماً بتقليدات وأعراف وإخلاقات وأساطير وأخلاقيات وأعراق وأزمنة من تحكمه بتقليدات وقواعد نحوية مجردة"؛ وهو من أبرز مفاصل البحث: "إذا ما تحدد نوع الضمير، فإنه ليس تحكيمه بمفرده من قبل منظومة نحوية ما، فإنه تحكيمه في الكثير من الحالات من قبل العلاقات الاجتماعية وقدرات القرب وأفكار الخطاب". وأخذًا بذلك، فإن البحث يحاول تحقيق أهداف علمية متنوعة: متصلة بموضوع البحث: ١. ضبط المعايير التي تقوم عليها عملية التصنيف النحوي والدلالي للضمائر في اللغة العربية والإنكليزية، وأسئلة النقاط الاشتراك والتفريق بينهما؛ ٢. فهم "تعقيد" الضمائر في اللغة العربية، وإطلاق "تبسيط"ها في الإنكليزية تفسيرًا وظيفي

أما فيما يتعلق بمنهج البحث، فإنه يعتمد على مقاربة مزدوجة: مقاربة وصفية–تحليلية تدرس الضمائر داخل كل لغة وفق نظامها، ومقاربة مقارنة تُعيد تنظيم النتائج ضمن محاور مشتركة، بحيث لا تُفرض معايير لغة على أخرى فرضًا، بل يُبحث عن "المكافئات الوظيفية" بين النظامين. ويُستثمر في ذلك ما يقدمه التراث النحوي العربي من تعليلات ورؤى (في الإيجاز ودفع اللبس وترتيب الأشخاص)، وما تقدمه الدراسات الحديثة في اللسانيات التاريخية والاجتماعية (في تفسير التحول البنيوي وعلاقته بالمجتمع).

وبناءً على هذا التصور، جاءت بنية البحث في ثلاثة أقسام مترابطة: القسم الأول يتناول التصنيف النحوي للضمائر في العربية: أشكاله (متصلة/منفصلة/مستترة)، وظائفه الإعرابية، ورؤى النحاة واللغويين في ماهيتها وتطورها وصلتها بالإشاريات، ثم يخلص إلى نتائج تؤكد أن التعقيد العربي مرتبط بكثافة الترميز واتصال الضمير بالبنية الصرفية. والقسم الثاني يتناول النظام الضمائري في الإنجليزية ضمن سياقه التاريخي والاجتماعي: من تعقيد الإنجليزية القديمة إلى تبسيط

وبذلك يضع هذا المقدمة قراءتها أمام حقيقة منهجية يجب تثبيتها منذ البداية: "لا قضية في هذا السياق أيُّ اللغات "أفضل" أو "أغنى"، بل كيف ينظّم كل نظام لغوي الإحالة ويوزّع المعلومات النحوية، وكيف يتفاعل ذلك مع التاريخ والثقافة والمجتمع". ومن هنا يأتي عنوان البحث بوصفه وعدًا تفسيريًا: "بين التعقيد والتبسيط" ليست ثنائية تقويم، بل ثنائية تحليل تُبرز اختلاف الاستراتيجيات اللغوية في بناء المعنى وتدبير التواصل.

القسم الاول

التصنيف النحوي للضمائر في اللغة العربية

التمهيد:

يصنّف الكلام في اللغة العربية إلى اسم، وفعل، وحرف والضمائر توضع بضمن الاسم وهي على نوعين: الضمائر الظاهرة، وأخرى مستترة، والظاهرة تصنّف إلى الضمائر المتصلة والمنفصلة، والمتصلة هي: (التاء، والألف، ونا، والنون، والكاف، والهاء، والياء) ومن الناحية الإعرابية تصنّف إلى ضمائر رفعٍ وهي (الألف، والتاء، والواو، والنون) نحو قولنا: (ذَهَبَا، وذهبْتُ، و ذهَبوا، وذهبْنَ،). ويشتركان (الياء، ونا) في الرفع والنصب فنقول: (ذهَبْنا، وتذهبين، اِذهبِي) رفعًا، و(أكرمنِي المديرُ،

وأكرمَنا المديرُ)، ونقول: (أذهبَ الله عنّي وعنكَ شرّ النفوسِ المريضةِ) وأما (الهاء، والكاف، وها) فنشترك جرًّا، ونصبًا، ولا تكون رفعًا؛ لأنّها لا يمكن الإسناد إليها فنقول:(أسديتُ النصيحة إليك، وإليها)، و(أعطيته، وأعطيتها، وأعطيتك).

والضمائر المنفصلة في العربية تصنّف إعرابيًّا إلى ضمائر رفعٍ ونصبٍ، فأما الرفع فهي : (أنا ونحنُ، وأنتَ، وأنتِ، وأنتما، وأنتم، وأنتنَّ، وهو، وهي، وهما، وهم، وهُنَّ)، والنصب هي: (إيايَ، وإيانا، وإياكَ، وإياكِ، وإياكما، وإياكم، وإياكنَّ، وإياهُ، وإياها، وإياهما، وإياهمْ، وإياهنَّ). **(ابن السراج، د.ت، ١١٥-١١٦)**.

- **الرؤية الفكرية للضمير عند العلماء قديمًا وحديثًا، وتطوّر النظام البنيوي للضمائر:**

كانت الانطلاقة الأولى للنحو في موضوع الضمائر من العالم النحوي سيبويه الذي عدّ الضمائر من المعارف في باب (مجرى نعت المعرفة)؛ إذ أشار إلى أنواع المعارف مُضمّنًا كلامه للضمائر حينما قال: (وأما الإضمار فنحو: هو، وإياه، وأنت... وإنما صار الإضمار معرفة لأنك إنما تضمر اسمًا بعد ما تعلم أنّ من يحدث قد عرف مَن تعني وما تعني، وأنّك تريد شيئًا يعلمه.). **(سيبويه, ١٩٨٨, ٦)**.

وقد بيّن سيبويه أنّ الضمير من الأسماء المبنية التي تحلّ محل الاسم الظاهر وتؤدي وظيفة إفهامية بشكل موجز حين قال: (وإن شئت قلت: زيدًا ضربته، وإنما نصبه على إضمار فعل هذا يفسره، كأنك قلت: ضربت زيدًا ضربته، إلا أنّهم لا يظهرون هذا الفعل هنا للاستغناء بتفسيره. فالاسم ها هنا مبني على هذا المضمر. ومثل ترك إظهار الفعل ها هنا ترك الإظهار في الموضع الذى تقدم فيه الإضمار) **(سيبويه: ١٩٨٨، ٨١)**. وما يشير إليه النص على ما يبدو أنّ سيبويه حدّد الوظيفة اللغوية الإحالية التي يؤديها الضمير.

كما أولى سيبويه الأهمية في تصنيف مراتب الضمائر إلى متكلم، ثم المخاطَب، ثم الغائب وهذا مغزى عبارته التي يقول فيها: (وإنما كان المخاطب أولى بأن يُبدأ به من قبل أنّ المخاطب أقرب إلى المتكلم من الغائب، فكما كان المتكلم أولى بأن يَبدأ بنفسه قبل المخاطَب، كان المخاطَب الذي هو أقرب من الغائب أولى بأن يُبدأ به من الغائب) **(سيبويه:١٩٨٨، ٣٦٤)**.

وهذا يدلّ على أنّ تصنيف سيبويه كان قائمًا على أساس الإفهام وإزالة اللبس والغموض الذي قد يكتنف النص.

وقيل أيضًا أنّ أخصّ الضمائر وأعرفها هذا التصنيف تعليل ذلك أنّ (ضمير الْمُتَكَلّم، والمخاطب يفسرهما الْمُشَاهدَة، وَأما ضمير الْغَائِب فعارٍ عَن الْمُشَاهدَة فاحتيج إِلَى مَا يفسره وأصل الْمُفَسّر الَّذِي عود عَلَيْهِ أَن يكون مقدمًا ليعلم الْمَعْنى بالضمير عِنْد ذكره بعد مفسره وَأَن يكون الْأَقْرَب) **(السيوطي، د.ت. ،٢٦٣)**.

والغاية المرجوّة من الضمير هو الإيجاز والاحتراز من اللبس، وقد أوضح العلماء العلة من الإيجاز بأنّه قد يُستغنى بالضمير عن الاسم بأكمله، وأما علة الإلباس فتعليلهم كان بأنّ الأسماء الظاهرة تتماز بكثرة الاشتراك، فعندما نقول: زيد فعل زيد جواز أن نتوهم بأنّ (زيد) الثاني غير (زيد) الأول؛ لذلك لا يمكن إزالة اللبس ودفع التوهم في الأسماء وجواز ذلك الدفع للتوهم إنما يكون في الصفات مصداق ذلك أنّنا نقول: مررْتُ بزيدٍ الطويل والرجل البزّاز؛ لأنّ الأحوال المقترنة بالضمائر مغنية عن الصفات والقصد بالأحوال حضور المتكلم ثم المخاطب، والمشاهدة؛ لذا عدّ المتكلم هو الأعرف والغائب هو الأضعف؛ لأنّه كناية عن نكرة ومعرفة. **(ابن يعيش، ٢٠٠١ ،٢٩٣)**.

وقد قدّم النحاة التعليلات الجزئيّة والكليّة والعِلل المنطقيّة لظواهر لغوية كانت أم قواعد نحوية، منها عِلة اصطلحوا عليها (الفرق) و(التخفيف) وهذا ما نجده في عبارة الزّجاج التي ذكرها ابن جني في خصائصه في حديثه عن بيان العِلة من رفع الفاعل، ونصب المفعول؛ إذ قال: (إنما فعل ذلك للفرق بينهما... فرفع الفاعلِ لقلته، ونصبُ المفعولِ لكثرته؛ وذلك ليقل في كلامهم ما يستثقلون ويكثر في كلامهم ما يستخفون) **(ابن جني، د.ت ،٥٠)**.

ومدلول المصطلح (الفرق) هو أنّ حكمة اللغة اقتضت التفريق بين ما تقارب من ظواهرها؛ لذا وضِعت الأساليب المتعدّدة للتفريق بين ظواهرها اللغوية، وقد تضمّن هذا المصطلح خطين منهما: تنوّع الحركة تفريقًا بين الوظائف الإعرابية المتنوّعة من رفعٍ، ونصبٍ، وجرٍّ، ومنها التفريق بين دلالات الصيغ المتضمّنة الحركات لاسيمّا حركات الضمائر كالضمة في تاء الفاعل، والفتحة في تاء المخاطَب، والكسرة للمخاطَبة **(أبو المكارم: ٢٠٠٦، ١٦١– ١٦٢)**.

ومن أدقّ العبارات في وصف الضمائر وتفسيرها قول أحد النحويين : (اِعلم أنّ الكلام صفة قائمة في نفس المتكلم يعبر للمخاطب عنه بلفظ، أو لحظ، أو (بخط) ، ولولا المخاطب ما احتيج إلى التعبير عما في نفس المتكلم. فإذا تقدّم في الكلام اسم ظاهر ثم أعيد ذكره أومأ المتكلم إليه بأدنى لفظ، ولم يحتج إلى إعادة اسمه لتقدم ذكره ... سميت تلك اللفظة اسماً مضمراً؛ لأنّها عبارة عن الاسم الذي أضمر استغناء عن لفظه الظاهر) (**السهيلي:١٩٩٢، ١٧٠**).

كما اختلفوا قديمًا في ماهية الضمير وتركيبته هل هكذا كان في أصل وضعهِ فكانت لهم تفسيرات؛ إذ فسّر بعضهم تركيبة ضمير الغيبة أنّ الهاء وحدها هي الضمير دليلهم حَذْف الياء والواو عند التثنية فيقال (هما)؛ إذ لو كانتا أصل لَمَا حُذفتا، ورّدّ على هذا التفسير بأنّ (هما) ليست صيغة مثنى بل هي صيغة مرتجلة للتثنية مثل (أنتما) وهذا ليس كقولنا (الزيدان). (**الأنباري:٥٥٩،٢٠٠٣**).

والتفسير الآخر ذهب إلى أنّ الواو والياء في ضمير الغيبة (هُو/ هِي) أصل فيهما حجتهم أنّ ضمائر الغيبة منفصلة، والمنفصل لا يمكن بناؤه على حرفٍ؛ لأنّ لا بدّ في الابتداء بحرفٍ والوقف على حرفٍ واحدٍ ولو كان الاسم هو الهاء ذاتها لأدى ذلك إلى جَعْل الحرف الواحد ساكنًا ومتحركًا وهذا لا يجوز (**الأنباري: ٢٠٠٣، ٥٥٩**)

ويوضّح فندريس ماهية الضمير حينما تناول جملة (الحصان يجري) مشيرًا إلى مكونات الجملة الأساسية وهما (الموضوع= الحصان) و(المحمول عليه = الجري) والتقدير: هو يجري، فالضمير لديه عبارة عن اختصار لغوي محكوم بالصورة الذهنية المعَبّر عنها بالضمير، وهو يشير إلى التفكير المجرّد للغة والذي عبّر عنه بدوال النسبة وهي ليست مستقلة بل الوصول إليها عن طريق التحليل اللغوي لبنية الكلمات (**فندريس: د.ت. ، ١٠٤– ١٠٦**).

وأشارت الدراسات الحديثة إلى أصالة ضميري المتكلم والمخاطَب في اللغات السامية، أما ضمير الغائب فيدخل ضمن الإشاريات ونتيجة للعلاقات الإعرابية مع ضميري المخاطب والمتكلم أخذ موقعه مع الضمائر (**بروكلمان: ١٩٧٧، ٨٦**). ودليلهم كذلك في أنّها متخذة موضعًا بين الإشارة والضمير أنّنا إذا سألنا: أين زيدٌ؟ كانت الإجابة (هو في الدار) وهذه العبارة بدل من قولنا (زيدٌ في الدار) فكُنّي عن الاسم بالضمير، والكناية أقرب إلى الإشارة بل مشتقة منها، بدليل أنّ (hu) في

العبرية تطابق (هُوَ) في العربية وتعني (ذلك) في حالات كثيرة **(براجشتراسر: ١٩٩٤، ٧٩)**. أما المخاطب والمتكلم فمعانيهما مستقلة جوهرًا ولا تصلح للكناية بها عن الأسماء، فالمتكلم (أنا) لا يكلم نفسه بل هو الأصل في الخطاب، والمخاطب (أنت) أصل ثانٍ **(براجشتراسر: ١٩٩٤، ٨٠)**.

وأثبتت الدراسات المقارنة اشتراك بعض اللغات السامية بحرف (الهاء) في ضمائر الغيبة لاسيما في اللغة الامهرية he هو، si هي، hem هم، sen هن، فالهاء مشتركة تذكيرًا، بيد أنّ السين اختصت بالتأنيث، يقابلها حرف الشين في اللغات السامية الشمالية **(براجشتراسر: ١٩٩٤، ١٨)**. كما يعد ضمير الغائب للمفرد في العبرية هو hu، hi إلا أنّ هناك ألفًا في آخره إملاء يعدّ مؤشّرًا على همزة ساقطة، وهذا يقود الى ما استنجته براجشتراسر هو أنّ الأصل كان: hia، hua والأحرى كان sia فحذفت في العربية الهمزة، وأبدلت ياء مؤنثًا، وواوًا تذكيرًا **(براجشتراسر: ١٩٩٤، ٨١-٨٢)**.

وأشارت الدراسات إلى وجود ضميري المتكلم والمخاطَب في المفرد بهيأة مركّبة في السامية الأم من (a)، وكذلك (ta) و (ti) . **(بروكلمان: ١٩٧٧، ٨٦)**. أما ضمير الجمع فكان غامضًا ووجِدت أقدم صيغة له في العبرية والعربية، وأما ضمير خطاب الجمع في العربية فإنّ المؤنث تَبِع المذكر، وحدث العكس في اللغة العبرية، في حين ضمير الغائب لم يوجد له توزيعًا أصليًا للأصوات إلّا في لهجات جنوب جزيرة العرب، وفي بعض اللهجات حصل تطوّرًا صوتيًّا وتبادلًا فاختفت أحرف وحلّت محلها أخرى، وقد انفردت العربية بضمير المثنى مخاطِبًا وغائبًا في الجمع المذكر في (هما، وأنتما). **(بروكلمان: ١٩٧٧، ٨٦)**.

وفي ذلك إشارة على أنّ تصنيف الضمائر في العربية كان نتيجة تطوّر البنية الداخلية، وتطوّر في الدلالة الوظيفية؛ إذ اتسمت بالرمز الإشاري انتهاء إلى مرجع إحالي ثابت، وأنّ لبّ الوظيفة الذهنية اللغوية هي الايجاز مع الإفهام.

بينما يرى هنري فليش أنّ تكوين الضمير لم يحدث نتيجة اشتقاق حصل على مستوى البنية الداخلية للصوت وإنما هي عناصر لغوية تطوّرت من الإشاريات والأدوات، أو عن طريق اللواحق والسوابق عبر التاريخ لتصبح بهذه الصورة النحوية المعروفة للضمير؛ وأنّ تحديد النوع لم يكن عبر حرف (التاء) في (أنتَ، أنتِ) وفي (كَ، كِ) بل نتيجة تعارض المصوتات، وتبادل المصوتات

مع ضمير الغيبة المنفصل (الضمة/ الكسرة) القصيرتان في (هُوَ/ هِيَ) والضمة/ الفتحة) الطويلتان (هُو/هَا) المتصل، أما جمع المخاطب، والغائب، والإشارة إلى هذا النوع ففسّره على حصول نوع من الاندماج مع الإشارة إلى العدد بإضافة لاحقة وهي واو المد مذكرًا، و الـ (نا) مؤنثًا واختصرت فيما بعد إلى (نَ)، وقد ذهب إلى أنّ اللغات في السامية الأم كان في تكوينها إشاريات وألفاظ تدلّ على الأشخاص ونتيجة الاستعمال تحوّلت إلى ضمائر(**فليش:** ١٩٨٦، ١٦١-١٦٥).

ولعالم اللغات السامية هتزرون رأي في تصنيف الضمائر، أو كيف تطوّرت في سلسلة اللغات السامية حتى استقرت في العربية بهذا التصنيف؛ إذ ذهب إلى أنّ هناك تطور حصل في اللاحقة النحوية والصرفية اشتركت فيها العربية وبعض اللغات السامية القديمة لاسيما الأكدية والعبرية وهذا التطور صار عن طريق مقارنة ضمير المخاطب المفرد (تَ/ تُ) في العربية وفي اللغة الأثيوبية (كَ/ كُ)، وفي الأكدية (آكُ/آتَ) وهذا مؤشر لديه على أنّ الأكدية أكثر اتساعًا وتعددًا في النظام التصريفي من العربية، وقد اتخذت العربية نظامًا تطوّريا في الشكل من بعض اللغات السامية كالأكدية، لأنّ الأخير يوجد في نظامه النحوي ضميران يقومان بوظيفتي النعت والضمير وهي مرحلة سابقة للعربية يمكن أن تُعدّ مؤشرًا يُفسّر التطوّر النحوي للضمائر في العربية؛ إذ قامت العربية بهيكلة البناء الداخلي للتراكيب وفصلها وظائفيًا لأنّها كانت ثنائية في بعض اللغات السامية، فبَقِي ضميرا المُلكية والمفعولية (كِ/كَ)، وجعلت اللاحقة للفاعل (تُ/ تِ/ تَ) في الأفعال، وخرج هترزون في دراسته المقارنة للغات السامية أنّ العربية انمازت بنظامها الصرفي المبسّط نتيجة التأثر التأريخي الحاصل بفعل الاختلاط والانفتاح على ثقافات متعددة فأثر في نظامها النحوي، كما ذكر أنّ هناك إشارات في نصوص ولهجات ما قبل الإسلام تبين وجود تنوع في الحركات التي تسبق اللواحق من الفتحة والكسرة، وكذلك الاختلاف الموجود في الساكن من الضمائر المتصلة بالأفعال، وهذا يدل أنّ هذه المرحلة تتسم بعد الثبات صوتيًا وصرفيًا، وبالتالي هو مؤشر يفسّر لنا كيف تم استقرار حركات الضمائر لاحقًا بهذا الشكل (تُ/ تَ/ تِ) (**فرستيغ:٢٠٠٣، ٢٥-٢٦**).

ويمكننا الاستدلال بعد هذا التفسير على أنّ الضمير في العربية مرّ بمرحلة انتقالية وظيفية من (الكاف) إلى (التاء، والكاف) وهو ما يمكن عدّه انتقالة نوعية تطورية في نظام تكوين الضمير

العربي، وأنّها كانت مجددة في نظامها قياسًا بالنظام السامي قديمًا، إذ قامت العربية بفصل الوظيفة النحوية الثنائية التي كانت في بعض اللغات السامية، فالأكدية تستعمل كثيرًا من اللواحق الشخصية في كلامها، بينما انمازت العربية بالتماسك البنيوي في نظام اللاحقة وهذا يتضح في لاحقة الفاعل المتصل بالفعل (التاء) (كتبتُ/ تَ/ تِ) تكلمًا، ومخاطَبًا، وتأنيثًا، ومفعولًا (رأيتك)، وهو مزيج من آثار السامية الأم وجزء من هيكلة البناء الداخلي للنظام اللغوي.

فالقاعدة التي انطلق منها هترزون في دراسة التصنيف الجيني للغات السامية قائم على مبدأ : أنّ كل تجديد معجمي أو صرفي تشترك فيه اللغات السامية هي المؤشر الأهم في كشف الصلات (الجينية)؛ لأنّها الأصل في فهم التطور الحاصل في البنية اللغوية **(فرستيغ: ٢٠٠٣، ٢٥)**.

يمكن أن نخرج بنتيجة جوهرية بحسب تصنيف هترزون للعربية من بين الساميات –حتى وإن كان تركيزه على الضمائر المتصلة– أنّها لم تنقل نظامًا نحويًا كان أصلا في السامية القديمة فحسب بل عملت على إعادة بناء الوظيفة التشكيلية الصرفية مبسِطة ومقنِنة ومحدِدة، مما يجعلنا أن نستنتج أنّ تطور الضمائر وتصنيفها كان نتاج تطور دينامي ولهجي ووراثي من الاشتراك اللغوي السامي القديم.

ومن باب اشتراك العربية والإنكليزية في بعض الأصوات ذكر فرستيغ أنّ صوت (l) كان يستخدم مع المفرد المذكر غائبًا ومع المتكلم جمعًا، كما استخدم صوت (a) مع المتكلم مفردًا، والمخاطَب، والمفرد المؤنث غائبًا، وهذا يدلّ على أنّ العربية الكلاسيكيّة الفصحى كانت متّبعة النمط الغربي؛ لأنّ الصوت ə كان معتمَدًا لديها في ضمائرها كافة **(فرستيغ: ٢٠٠٣،٦١)**.

وهناك رأي في اللغات البدائية يقول بأنّه لا يوجد نوعان من الجنس مثلما هو الحال في اللغات السامية، ولا ثلاثة أنواع مثل الهندوأوربية، بل هي أنواع متعددة مقترن ببعضها نحويًا، وموزّعة فيها أشياء العالم المحسوس وهو رأي قائم على التأملات اللاهوتية أو الخرافية، والذي يبدو أنّ الأصل المُعتَمد في بيان نوع الجنس في معظم اللغات السامية يكون التفريق بينهما عن طريق استخدام كلمة من جنس غيرها، وليس بأداة نحوية معينة نحو (حمار) مؤنثه (أتان)، و(كبش) مؤنثه (نعجة)،

أو استخدام صيغة تدل على المؤنث بدون علامة تأنيث كما في العربية في قولنا (عاقر). **(فرستيغ: ٢٠٠٣، ٩٥)**.

وفي مجال تبسيط اللغة العربية من جانب القواعد قدّم بعض من الباحثين مقترحات منها إلغاء العلامات الإعرابية دون التعرّض للنظام التصريفي الإعرابي، أو القيام باستبدال القواعد الموضوعة للعدد في بعض اللهجات، ومن أكثر المقترحات ثورة على التغيير ما قدّمه فريحة والخوري المتضمّنة القيام بإلغاء ضمير الجمع للمؤنث واستعمال ضمير الجمع للمذكر بدلًا من الجمع المؤنث في الأفعال والأسماء، وظلت هذه المقترحات حبرًا على ورق ولم تحظ بالتأييد (فكرة اللغة الميسّرة). **(فرستيغ: ٢٠٠٣، ٢١١)**.

وظلت محاولات تبسيط اللغة العربية جدلًا عقيمًا لم تدخل نطاق العمل بها حتى مع دخول اللغة حيز المجال اللغوي الاجتماعي، فقد ظهر ما يسمى اللغة الفصيحة مثلا وهي تجمع بين العامية والفصحى؛ إذ عندما تظهر سمات لغوية معينة في منطقة ما لن يحدث التأثير حالا بل يحصل تدريجيًا فالفعل (نكتب) و(أكتب) فقد فُسّر أنّ هناك تغييرًا حصل في (نكتب) ناتجًا عن دمج الضمير (أنا) ' (أكتب)، وهناك تفسير آخر يقول إنّ الضمير ناتج من جمع الفعل، ويؤوّل هذا التفسير بأنّه تطوّر مشابه لضمير المخاطب والغائب **(فرستيغ: ٢٠٠٣، ١٥٧– ١٥٨)**.

وذهب عالم الاجتماع اللغوي **هدسن** أنّ تحديد نوع الضمير لا يحكمه النظام النحوي فحسب بل هو محكوم بالعلاقات الاجتماعية بين المتحدثين فالسلطة، والخلفيات الاجتماعية المختلفة، ودرجات القرب بين الأفراد والجماعات كلها عوامل تلعب دورًا في اختيار الضمير عند التكلّم، فضمير الجمع (نحن) مؤشّر –أحيانًا– إلى انتماء معين؛ إذ قد يستخدم في توجيه الخطاب إلى فئة سياسية أو في خطاب ديني، وهذا يدل على أنّ الضمير لديه مؤشّر تكوين الهوية الفردية والجماعية **(فرستيغ: ٢٠٠٣، ٢٠٦)**.

- **المعايير المتحكّمة في التصنيف اللغوي لفئات المتكلمين في العربية والإنكليزية:**

بحسب الدراسات والبحوث الحديثة وجِد أنّ هناك معايير خاصة انبنت عليها تصنيف الضمائر نحويًا في اللغتين العربية والإنكليزية، منها جنس المتكلم والعدد ومثال ذلك تحديد فئة ما دلاليًّا على أساس المتكلم/ والمخاطب/ بل إذا كان بشرًا أو حيوانًا لها أثر في منح المرتبة النحوية الأعلى

في التصنيف النحوي للضمائر، وهذا بدوره يؤثر في نمط تصنيف الضمائر بل وحتى في الإعراب، كذلك وجِد في بعض العوائل اللغوية تفريقًا في الجنس اللغوي تذكيرًا وتأنيثًا وهذا تتحكّم فيه عوامل عديدة منها على سبيل المثال أنّ العربية والعبرية ورِثت عبر تاريخها اللغوي السّامي نظامًا نحويًا قويًا ميّزت فيه الجنس اللغوي فاستمر في اللغتين ، كذلك عامل الاتصال الوظيفي له أثر في التمييز اللغوي بين الجنسين إذا احتاجه المجتمع تعبيرًا أو إشارة للتمييز بين الجنسين وإلا لا يكتب لهذا النظام البقاء، وعموم التفريق بين التذكير والتأنيث يظهر جليًا إذا ما قارنا بين الانكليزية والعربية في حال اقتران الضمير مع الفعل ففي العربية تختلف الضمائر وتصريف الفعل حينما نقول: أنا ذهبْتُ، وأنتَ ذهبتَ، وأنتِ ذهبْتِ، وهنَ ذهبْنَ..... بينما الأمرُ مختلفٌ مع الإنكليزية؛ لأنّ الأفعال باقية مع الضمائر مثل الفعل (went) فالعربية تفرّق تذكيرًا وتأنيثًا في تصريف الفعل مع الضمير على خلاف الإنكليزية فالأخير يعتمد على الضمير في تحديد المعني **(عمايرة ١٩٩٣: ٩٤)**.

خاتمة القسم الاول:

- تصنيف الضمائر في العربية إنما حصل نتيجة للتطور في البنية الداخلية والوظيفة الدلالية، أو عن طريق تعارض في المصوتات أو التبادل .
- كذلك أشار البحث إلى أنّ الضمائر تطوّرت عن طريق الإشاريات؛ إذ إنّ الضمير في اللغات السامية كان في أصل تكوينه إشاريات دالة على الشخوص ثم تحوّل إلى ضمير نتيجة الاستعمال.
- الضمير في العربية مرّ بمرحلة انتقالية وظيفية وهو ما يمكن عدّه انتقالة نوعية تطورية في نظام تكوين الضمير العربي، وأنّها كانت مجددة في نظامها قياسًا بالنظام السامي قديمًا، إذ قامت العربية بفصل الوظيفة النحوية الثنائية التي كانت في بعض اللغات السامية.
- بيّن البحث أنّ تطور الضمائر في العربية وتصنيفها كان نتاج تطور دينامي ولهجي ووراثي من الاشتراك اللغوي السامي القديم.

- أشار البحث إلى أنّ تحديد نوع الضمير لا يحكمه النظام النحوي فحسب بل هو محكوم بالعلاقات الاجتماعية بين المتحدثين فالسلطة، والخلفيات الاجتماعية المختلفة، ودرجات القرب بين الأفراد والجماعات كلها عوامل تلعب دورًا في اختيار الضمير عند التكلّم.

القسم الثاني

اللغة الإنجليزية :نشأتها التاريخية، تطورها البنيوي، والعوامل الثقافية والسوسيولوجية المكوّنة لنظامها الضمائري

٢-١ مدخل نظري عام:

تُحتلّ اللغة الإنجليزية مكانة مركزية في المشهد اللغوي العالمي المعاصر، ليس لأنّها وسيلة للتواصل الدولّي، بل لأنّها وسطي معرفي وثقافي وهيكلي أضفى على الإطلاق إسهامات عميقة في تشكيل أنماط التفكير والتعبير في جموع واسعة من المجتمعات الحديثة (Crystal, 2003, 1–6). وهي اليوم اللغة المهيمنة في مجالات البحث العلمي، والاقتصاد العالمي، والتكنولوجيا، والدبلوماسية، والإنتاج الثقافي، وهي مجالات مهمة جدًا، ومن ثمّ فدراستها من الناحية التاريخية والبنيوية ضرورة علمية لا ترفّ معرفية (Graddol, 2006, 7–12). وهو ما يدل على أنّ النظرة النحوية، وعلى نحو أدق الضمائريّة، من بين مستويات اللغة التي تتمتّع بمستوى أسمى من هذا التطوّر؛ إذ إنّ دراسة الضمائر تُظهر بشكل واضح كيفية التطوّر من لغة بنية صرفية من النوع التركيبي المعقّد إلى لغة أكثر تحلّيّاً، وأكثر شكلاً، وأكثر حيادا جندريّا وعدديّا (McWhorter, 2011, 58–66). ومع ذلك، فلا يمكن فهم هذا التطوّر إلا عن طريق تجنب رؤية هذا التطوّر على أنّه منحرف، وهبوط، من حيث اللغويّة، وأن نشير إلى أنّ هذا التطوّر يجب أن يُفهم عن طريق التكيّف الوظيفي للغة مع أدوارها المُجتمعة الناتجة عن التغييرات الاجتماعية والتاريخية (Trudgill, 2011, 21–24).

إنّ دراسة الضمائر في اللغة الإنجليزية لا تمثل مسألة شكلية محضة، بل تشكّل مدخلًا نظريًا لفهم العلاقة الجدلية بين اللغة والمجتمع، وكيف تستجيب البنى النحوية للضغوط الاجتماعية والتاريخية، وكيف يُعاد تشكيل النظام اللغوي تبعًا لتغير وظائف اللغة، وانتقالها من فضاء محلي محدود إلى فضاء عالمي متعدد المتكلمين والثقافات(Millar, 2012: 3–7) .

2.2الجذور التاريخية للغة الإنجليزية القديمة:

تُصنف اللغة الإنجليزية من الفرع الجرماني الغربي من عائلة اللغة الهندي الأوربية، والذي يشمل لغات مثل الألمانية، والهولندية، والفريزية، وقد اشتقت جذورها الأولى من الهجرة التي شهدتها قبائل

الأنجلوساكسون، شاملة الأنجليز وساكسون اليوت إلى جزر بريطانيا في القرن الخامس الميلادي، بعد انسحاب الإدارة الرومانية من بريطانيا(Hogg & Denison, 2006,19–26) ؛ Baugh & Cable, 2013:41–45). وقد كانت هذه القبائل تحمل لغات جرمانية قارية، كانت متقاربة بنيويا، ما أدى إلى ظهور ما سميت بهنجليزية قديمة، التي ظلّت من القرن الخامس حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي.

تميّزت اللغة الإنجليزية القديمة بنظام صرفيّ غني ومعقّد، تشمل ظهور حالات إعرابية متعددة للأسماء النكرة والمعرفة، نظام جنس ثلاثي ينقسم بين المذكر، والمؤنث، والمحايد، فضلاً عن تمييز بين المفرد، والمثنى، والجنس، ولا سيما الضمائر الشخصية (Hogg & Denison, 2006,68–74؛ Crystal, 2012,28–32). وقد ظلّت اللغة مستعدة لدرجة عالية من المرونة في ترتيب الكلمات؛ إذ حددت العلاقات النحوية عن طريق علامات الصرف لا عن طريق مكان الكلمة في الجملة (Comrie, 1989,92–95).

غير أنّ هذا التعقيد البنيوي لم يكن سمة ثابتة أو دائمة، بل بدأ يتعرض تدريجيًا للتآكل نتيجة سلسلة من التحولات التاريخية العميقة، كان أبرزها الاحتكاك باللغات الإسكندنافية ، ثم الغزو النورماني عام 1066م، الذي مثّل نقطة انعطاف حاسمة في تاريخ اللغة الإنجليزية (Baugh & Cable, 2013, 98–102).

٢-٣ الغزو النورماني وبداية التحول البنيوي:

أدى الغزو النورماني لانجلترا ظهور وضع لغوي ثنائي يمتد لقرون عديدة؛ إذ أصبحت الفرنسية النورمانية لغة الحكم والإدارة والثقافة العليا، في حين أصبحت الإنجليزية لغة عامة الشعب والتواصل اليومي .(Crystal, 2012,70–76) وقد نجم عن هذا الوضع احتكاك لغوي مكثف وطويل الأمد، لم يقتصر أثره على المستوى المعجمي، بل امتد ليشمل بنية النحو والصرف للغة الإنجليزية (Millar, 2012, 83–89).

ويرى بعض علماء تاريخ اللغة الإنجليزية أنّ هذا الاحتكاك اللغوي المستمر بين متحدثين بلغات مختلفة قد ساهم في تسريع عملية التبسيط النحوي؛ إذ أصبحت اللغة تميل إلى تقليل العلامات الصرفية التي قد تعيق الفهم المتبادل في سياق اجتماعي متعدد اللغات (Trudgill, 2011, 34–38). وقد أثر ذلك بصورة واضحة في النظام الضمائري، فقد بدأت صيغ المثنى بالاندثار، وتقلّصت الفروق

الجندرية في السياقات النحوية المختلفة، وصولًا إلى حصر التمييز الجندري في ضمائر الغائب المفرد فقط (Hogg & Denison, 2006, 156–160).

كما أدّى ضعف النظام الإعرابي القديم إلى اعتماد متزايد على ترتيب الكلمات لتحديد الوظائف النحوية، وهو تحوّل جوهري غيّر طبيعة اللغة من لغة تركيبية صرفية إلى لغة تحليلية تعتمد على البنية الخطية للجملة(Comrie, 1989: 107–110 ؛McIntyre, 2020, 41–44).

٢–٤ الإنجليزية الوسطى والتحولات الثقافية والاجتماعية العميقة:

لا يمكن تمثّل التغييرات البينيوية التي طرأت على نظام الضمائر في اللغة الإنجليزية أثناء مرحلة الإنجليزي المتوسط دون الإشارة إلى التغييرات الثقافية والاجتماعية التي شهدتها مجتمع الإنجليز ذاته. فمثلاً كان مجتمع الإنجليز منذ العصور الوسطى المبكرة متمتعًا بإمكانية ملموسة في البراغماتية العملية وبتحليل النزعة المحافظة في اللغويات عندها في علاقة باللغات اللاتينيّة، مما أتاح للاهتمام اللغوي هامشًا واسعًا للتغيير والاستيعاب(Millar, 2012, 121–127).

كانت إنجلترا مُغيّرةً لروح العزلة القارية النسبية منذ قرون طويلة في الحقيقة بسبب موقعها الجغرافي الجزري. وقد أسهم ذلك في تمثّل هوية ثقافية مستقلة نسبيًا تقوم على الإكتفاء الذاتي والمرونة في مواجهة التغييرات الخارجيّة(Crystal, 2012, 92–95). ولو كان لزاماً التأكد من أنّ العزلة التي شهدتها إنجلترا أثناء العصور الوسطى كانت عزلًا في الحقيقة وليس انعزالا على الإطلاق، لكنا قد توصلنا إلى أنّ التأثير الذي تركته في تمثّل هوية ثقافية كان في الحقيقة مستقلًا نسبيًّا، وذهب عدد من الباحثين إلى أنّ هذا التحول لا يمكن تفسيره لغويًا فقط، بل ينبغي ربطه بتراجع البنى الإقطاعية الصارمة، وظهور أنماط اجتماعية أكثر انفتاحًا وحركة.(Trudgill, 2011, 58–62)

٢–٥ الضمائر والتحول من التراتبية إلى المساواة الاجتماعية:

الجذور التاريخية للغة الإنجليزية القديمة:

تُصنف اللغة الإنجليزية من الفرع الجرماني الغربي من عائلة اللغة الهندو أوربي، والذي يشمل لغات مثل الألمانية والهولندية، والفريزية، وقد اشتقت جذورها الأولى من الهجرة التي شهدتها قبائل الأنجلوساكسون، شاملة الأنجلز وساكسون إلى جزر بريطانيا في القرن الخامس الميلادي، بعد انسحاب الإدارة الرومانية من بريطانيا (Hogg & Denison, 2006,19–26؛ Baugh & Cable,

45–2013:41). وقد كانت هذه القبائل تحمل لغات جرمانية قارية، كانت متقاربة بنيويا، ممّا أدى إلى ظهور ما سميت الإنجليزية القديمة، التي استمرت من القرن الخامس حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي.

٢-٦ التوسع الإمبراطوري وتدويل النظام الضمائري:

مع توسع الامبراطورية البريطانية وتمددها التي قيل إنّها لا تغيب عنها الشمس في القرن السابع عشر، دخلت اللغة الإنجليزية في مرحلة جديدة من التفاعل الثقافي العالمي. فقد أصبحت لغة الإدارة الاستعمارية، والتعليم، والتجارة، وهو ما فرض عليها أن تؤدي وظائف تواصلية في بيئات لغوية وثقافية شديدة التنوع (Crystal, 2003: 48–52). وفي هذا السياق، اكتسبت البساطة الضمائرية قيمة وظيفية عالية؛ إذ سهّلت عملية تعلّم اللغة واستخدامها من قبل متحدثين غير أصليين.

يُشير (Graddol (2006: 64–69) إلى أنّ انتشار الإنجليزية العالميًا قد أسهمت في إعادة إنتاج نموذج لغوي معياري يقوم على تقليل التعقيد الصرفي، وتثبيت أنماط ضمائرية واضحة وقابلة للتعميم. وقد عزّز هذا المسار من نزعة الحياد الجندري، لا بدافع أيديولوجي مباشر، بل نتيجة لضغط الاستعمال العالمي، والحاجة إلى التواصل الفعّال عبر ثقافات مختلفة.

٢-٧ الثقافة الإنجليزية والحياد الجندري في الضمائر:

وهو الحياد الجندري في نظام الضمائر الموجودة في اللغة الإنكليزية، وهو مظهر لا يُمكن تفريقه عن مظهر ثقافي عام يخص المجتمع الإنكليزي، الذي كان ملكه في حقيقة الأمر التعبير عن نزعة عقلانية وبراغماتية واضحة في مراحل التاريخ؛ لأنّ المجتمع الإنكليزي اختار التعبير عن الوظيفة العامة في الخطاب الإنكليزي على التعبير عن التخصيص الجندري الدقيق، في مقابل المجتمع الذي يمنح التعبير عن النوع الاجتماعي حضوراً لغوياً كثيفاً. (McWhorter, 2011, 133–138)

كذلك فإنّ غياب التمييز الجندري في ضمائر المخاطب يعكس ميلًا ثقافيًا إلى التجريد والتعميم؛ إذ يُنظر إلى المخاطَب بوصفه ذاتًا اجتماعية عامة لا بوصفه كيانًا مُصنَّفًا جندريًا في كل موقف تواصلي .وقد أسهم هذا التوجّه في تقبّل استعمال ضمائر محايدة، أو عامة في الخطاب الحديث، من ذلك تطور استعمال they المفرد في السياقات غير المحددة.(Crystal, 2012: 178–182)

٢-٨ خاتمة القسم الثاني:

بعد ما قدّمناه، تبيّن أنّ النظام الضمائري في اللغة الإنجليزية حصل نتيجة مسار ثقافي، وسوسيولوجي طويل، تداخل في هذا المسار العزلة الجغرافية، والغزوات، والتحولات الطبقية، والتوسع الإمبراطوري، والعقلانية الثقافية. ولم يكن التبسيط الضمائري نتيجة فقر لغوي، بل تعبيرًا عن قدرة اللغة على التكيّف مع تحولات المجتمع ووظائفه. ومن ثمّ فإنّ دراسة الضمائر في الإنجليزية تكشف عن علاقة عضوية بين اللغة والتاريخ.

القسم الثالث

الدراسة المقارنة للضمائر بين العربية والإنجليزية

بين التعقيد الترميزي والتبسيط الشكلي: قراءة بنيوية وتداولية

بعد أن عالج البحث في قسمه الأول التصنيف النحوي للضمائر في العربية من داخل التراث النحوي ورهاناته الدلالية والإحالية، ووقف في قسمه الثاني على المسار التاريخي–الاجتماعي الذي أسهم في تشكيل النظام الضمائري في الإنجليزية واتجاهه نحو الاقتصاد الشكلي والحياد النسبي، يصبح الانتقال إلى القسم الثالث المقارن ضرورة منهجية كي تكتمل صورة الدراسة. فالمقارنة هنا ليست مجرد وضع قائمتين من الضمائر إزاء بعضهما، بل هي اختبار لمفهومَي (التعقيد) و(التبسيط) كما يظهران في نظامين لغويين مختلفين من حيث الانتماء العائلي (سامية/هندوأوروبية)، ومن حيث طبيعة البنية (صرفية–تركيبية غنية في العربية مقابل ميل تحليلي في الإنجليزية)، ومن حيث علاقة النحو بالسياق الاجتماعي داخل الخطاب.

وينطلق هذا القسم من فرضية مفادها أنّ مظاهر التعقيد، أو التبسيط لا تُقاس بعدد الضمائر، بل بدرجة تداخلها مع البنية الصرفية للفعل والاسم، وبنوع الفروق التي تُشفِّرها داخل النسق: الجنس، والعدد، والحضور الخطابي (متكلم/مخاطب/غائب)، وكذلك بدرجة اعتماد اللغة على الضمير ذاته في ترميز العلاقات النحوية مقارنة باعتمادها على العلامات الإعرابية، أو على ترتيب الكلمات. وعليه، ستتناول المقارنة ثلاثة محاور كبرى: (١) محور البنية الشكلية، (٢) محور السمات المميِّزة، (٣) محور الوظيفة التداولية–الاجتماعية. ثم تُستكمل المقارنة بمحور رابع مُضمَر في المحاور الثلاثة، هو: (الاقتصاد الوظيفي) وكيف تعوّض كل لغة ما تفقده في مستوى بما تكسبه في مستوى آخر.

٣-١ محور البنية الشكلية: الاستقلال مقابل الالتحام

٣-١-١ العربية: الضمير بوصفه جزءًا من الكلمة

تتّسم العربية بنظام ضمائري مزدوج (منفصل/متصل) يتيح للضمير أن يكون كلمة مستقلة، أو أن يتحول إلى لاحقة، أو شبه لاحقة تلتصق بالفعل، أو الاسم، أو الحرف. وهذا الالتصاق ليس مجرد تنوع شكلي، بل يحمل آثارًا نحوية مباشرة:

- فالضمير المتصل قد ينهض بوظائف متعددة (فاعل/مفعول/مضاف إليه) بحسب موقعه الصرفي.
- كما أنّ البنية الصرفية للفعل العربي تُشفِّر فئة الشخص، والعدد، والجنس داخل صيغة واحدة؛ إذ يصبح الضمير أحيانًا (مُستغنىً عنه) في الظاهر؛ لأنّ الفعل نفسه قد دلّ عليه (أذهبُ/ نذهبُ/ تذهبينَ/ ذهبوا....)

وهنا يظهر التعقيد العربي لا بوصفه (كثرة في الضمائر) فقط، بل بوصفه نظامًا يُحمِّل العلامة الضميرية وظيفةً نحويةً، وإحاليةً في آنٍ واحدٍ، ويجعل العلاقة بين (الضمير) و(التصريف) علاقة إسناد لا انفصال.

٣-١-٢ الإنجليزية: الضمير بوصفه وحدة مستقلة:

في الإنجليزية، الضمير في الغالب وحدة مستقلة منفصلة لا تلتصق بالفعل، ولا يُشفِّر الفعلُ عادةً معلومات الشخص، والجنس، والعدد إلا في حدود ضيقة (مثل s- في المضارع مع الغائب المفرد). وهذا الاستقلال يُنتج نتيجتين مهمتين:

١. إنّ الضمير يصبح أداة مركزية لضبط الإحالة داخل الجملة؛ لأنّ لا توجد في الفعل علامات كافية تقوم بهذا العمل.
٢. إنّ الوظائف النحوية (فاعل/مفعول) تُحدَّد بدرجة أكبر عبر ترتيب الكلمات، أو عبر اختلاف شكل الضمير ذاته بين الفاعلية والمفعولية(I/me) ، he/him، .(we/us

إذن، الإنجليزية تُبسط علاقة الضمير بالفعل، لكنها تحافظ على حدّ أدنى من التصريف الضمائري الداخلي في بعض الأشكال (تمييز الرفع، والنصب في الضمير)، وهو ما يثبت أنّ التبسيط ليس إلغاءً كاملًا، بل إعادة توزيع للوظائف.

خلاصة جزئية

تميل اللغة العربية إلى (الالصاق الصرفي) بين الضمير وبنية الكلمة، أما اللغة الإنجليزية فتميل إلى (الاستقلال التركيبي) مع اعتماد أكبر على ترتيب الجملة. وهذا الفرق البنيوي هو مدخل أساس لفهم **لماذا يبدو النظام العربي أكثر تعقيدًا شكليًا؟، ولماذا تبدو الإنجليزية أكثر اقتصادًا في العلامة.؟**

٣-٢ محور السمات المميِّزة: الجنس، والعدد، والمثنى:

٣-٢-١ العدد: العربية تُشفِّر ثلاثية العدد، والإنجليزية تُشفِّر ثنائية:

إذا كان تمييز المفرد، والمثنى، والجمع في الضمائر، وفي تصريف الفعل في العربية مميزًا واضحًا، فإنّه لا يقتصر على الضمير المنفصل، بل يمتد إلى المتصل، وإلى الصيغة الفعلية. أما الإنجليزية الحديثة، فخلت عن المثنى، وأسست ثنائية العدد (مفرد/جمع)، مع بقاء آثار تاريخية محدودة لا ترقى إلى نسق نحوي قائم. وإذا كان هذا الفرق لا يُوصف بأنّه (زيادة شكلية) فقط، فهذا لأنّ المثنى في العربية دلالية تداولية؛لأنّه يوفّر دقة في تحديد المشارك والمشاركين، ويقلل من اللبس، ويسمح بترتيب إحالي أكثر تحديدًا في الخطاب.

٣-٢-٢ الجنس: العربية تُوزّع الجنس على منظومة واسعة، والإنجليزية تحصره غالبًا

في اللغة العربية، يكون التمييز الجندري واضحاً في ضمائر المخاطب والغائب ويُظهر هذا التمييز أيضًا في التصريف الفعلي (ذهبتَ/ذهبتِ، ذهبوا/ذهبنا). وفي اللغة الإنجليزية، يُظهر اللغة اختيار الحياد الجندري في مخاطب الغائب (you للكل)، ويُظهر اللغة اختيار التمييز الجندري فقط في ضمائر الغائب المفرد (he/she)، مع وجود ضمير محايد للأشخاص (it)، واتجاه نحو زيادة استعمال they المفرد لوصف الغائب المفرد دون سياق محدد، أو محايد.

هذا يعني أنّ العربية تُفضِّل (الترميز الصريح) للجنس داخل النظام، بينما الإنجليزية تُفضِّل (الاقتصاد) وتترك جزءًا من تحديد الجنس للسياق، أو للاسم السابق، أو للمعرفة المشتركة.

٣-٢-٣ الشخص والحضور الخطابي: ترتيب الأشخاص ووظيفة القرب:

يتشاركان فيهما التقسيم العام (متكلم/مخاطب/غائب). ومع ذلك، فلا تُفسَر العربيّة، بحسب التصورات التراثية، هذه الترتيب إلا بفكرة القرب الإحالي وإزالة اللبس، وهي فكرة تدلّ على فهم مبكر للمصالح النحويّة والفاعليّة الإدراكيّة، في مقابل ذلك فلا تُحَي الإنجليزيّة، بصفة عامة,

والتعقيد في اللغة العربية ظاهرته (ترميز أعلى) للجنس والعدد في النسيج الخطابي، بينما ظاهرة التبسيط في اللغة الإنجليزية ظاهرته (تقليل الترميز) في السياق والتركيب. والشيء الأهم هو أنّ كل لغة لا تقل أهميتها بسبب أنّ علاماتها أقل، ولا تفضل لمجرد أنّه علاماتها أكثر؛ بل كلّ منهما يختار استراتيجية مختلفة لتمثيل المعنى.

٣-٣ محور الوظيفة التداولية-الاجتماعية: الضمير كعلامة هوية، وسلطة، وقرب:

٣-٣-١ العربية: اتساع وظيفة الضمير خارج النحو الصرف:

على الرغم من وجود نظام ضمائري مقنّن، فإنّ الاستعمال العربي الواقعي -لاسيما في الخطاب الاجتماعي- يكشف أنّ اختيار الضمير لا يُحسم دائمًا بنحو مجرد، بل تحكمه اعتبارات مثل:

- المقام (رسمي/حميمي).
- درجة القرب أو السلطة.

- الهوية الجماعية أو الانتماء (استعمال (نحن) بوصفه ضميرًا جامعًا قد يتجاوز الدلالة العددية إلى الدلالة الهوياتية. ومن ثم فإنّ (نحو الضمير) لا يتوقف عند قواعد الإعراب، والاتصال، والانفصال، بل يمتد إلى (بلاغة الضمير) بوصفه أداة لإنتاج معنى اجتماعي.

٣-٣-٢ الإنجليزية: ضمائر المساواة والتحولات القيمية

شهدت اللغة الإنجليزية تحولات جلية في ظاهرة الضمير المتراكمة كنوع من العلامات التراتبية؛ إذ إنّ اللغتين (الإنجليزية والألمانية) سادت بشكل عام لصالح ضمير (you) الشامل. وهذا ليس من حيث المظهر وحسب، بل من حيث المضمون أيضا؛ وقد انعكس هذا التطور عن طريق التغير الثقافي الاجتماعي الموجه نحو التقليل من المسافات الرمزية المتبقية في المخاطرة العامة.

٣-٣-٣ ما الذي يبقى من (النحو) حين يتدخل المجتمع؟

تصل هنا المقاربة إلى نقطة جوهرية: كلا النظامين يثبت أنّ الضمير ليس (آلية إحالة) فحسب؛ بل (قرار تواصلي). والفرق هو أنّ العربية تُشفِّر كثيرًا من الفروق داخل النظام نفسه، بينما الإنجليزية تترك مجالًا أكبر للسياق وللقيم الاجتماعية كي تحسم بعض الاختيارات؛ لذا لا معنى للقول إنّ الضمير يُحدَّده النحو فقط؛ لأنّ الاستعمال يبرهن أنّ النحو يضع الإطار، لكن المجتمع يملي عليه الوظائف، أو يحدد له الوظائف.

٣-٤ الاقتصاد الوظيفي: إعادة توزيع التعقيد بدل إلغائه:

من الخطأ المنهجي افتراض أنّ اللغة الإنجليزية لغةَ بسيطة؛ لأنّ عدد علاماتها أقل، أو أنّ العربية معقّدة؛ لأنّ علاماتها أكثر، بل الافضل أن نقول:

- تُركّز العربية التعقيد داخل العلامة (ضمير/تصريف/اتصال)، فتجعل كثيرًا من المعنى النحوي مشفّرًا داخل الكلمة.
- تُوزّع الإنجليزية التعقيد عبر البنية (ترتيب/قرائن/ضمير مستقل/سياق)، فتقلل العلامة لكنها تزيد الاعتماد على التنظيم التركيبي والتداولي.

اذن يمكن إعادة تعريف التعقيد/التبسيط كونهما استراتيجيتين لتنظيم الإحالة:

- استراتيجية الترميز الصريح (العربية).
- استراتيجية الاقتصاد الشكلي مع التعويض السياقي (الإنجليزية).

٣-٥ خلاصة القسم الثالث ونتائج المقارنة:

تخلص المقارنة إلى جملة نتائج يمكن عدّها مركزية في هذا البحث:

١. إنّ الاختلاف بين النظامين لا تختزل في قائمة ضمائر، بل في علاقة الضمير بالبنية الصرفية والتركيب.
٢. تُظهر اللغة العربية كثافة ترميزية في الجنس، والعدد، والمثنى، واتصال الضمير، بينما تظهر الإنجليزية اقتصادًا شكليًا مع اعتماد أكبر على ترتيب الكلمات والسياق.
٣. إنّ الضمائر في اللغتين تؤدي وظيفة اجتماعية تتجاوز حدود التصنيف النحوي، وتُستثمر في بناء القرب والسلطة والهوية.
٤. إنّ مفهوم (التبسيط) لا يعني فقدان القدرة التعبيرية، بل يعني انتقال الوظيفة من مستوى إلى مستوى آخر (من الصرف إلى التركيب، أو من العلامة إلى السياق).

وبهذا يُغلق القسم الثالث الدائرة المنهجية للبحث: فالضمير ليس مجرد (قسم من أقسام المعارف) ولا مجرد (أداة إحالة)، بل هو نقطة تداخل بين البنية والتاريخ والاستعمال الاجتماعي، وفي هذا التداخل بالذات يتحدد معنى التعقيد والتبسيط في الضمائر بين العربية والإنجليزية.

الخاتمة

وصلت هذه الدراسة إلى أنّ نظام التصنيف النحوي للضمائر، على الرغم من ظهوره في كتب النحو بوصفه ترتيبًا شخصيًا مستقرًا (متكلم/مخاطب/غائب) وما يتفرّع عنه من فروق جنس وعدد، إنما يُمثّل ظاهرة مركّبة تتداخل فيها طبقات بنيوية، وتاريخيةن ووظيفية، وتداولية، فمن جهة العربية كشفت المعالجة أنّ الضمائر ليست وحدات جامدة، بل نتاج مسار تطوري ارتبط بتحوّل الإشاريات إلى ضمائر بفعل الاستعمال، وبعوامل دينامية، ولهجية، ووراثية تعود إلى اللغة السامية الأم، ثم استقرّ النظام لاحقًا في صورة عالية التنظيم: ضمائر منفصلة ومتّصلة، وتوزيع إعرابي واضح، وتمييز دقيق للجنس، والعدد، واتصال وثيق بالبنية الصرفية للفعل والاسم.

وقد بيّن البحث كذلك أنّ التراث النحوي لم يدرس الضمير بوصفه علامة إحالية فقط، بل بوصفه أداة للإيجاز ورفع اللبس، وأنّ كثيرًا من تعليلات النحاة (كالفرق والتخفيف) تُفهم ضمن منطق الاقتصاد اللغوي وتقليل الالتباس في التواصل.

ومن جهة الإنجليزية، أظهرت الدراسة أنّ نظام الضمائر كان تاريخيًا أكثر تعقيدًا في الإنجليزية القديمة (حالات إعرابية، وتمايزات أوسع)، ثم اتجه عبر العصور، ولاسيما بعد الاحتكاكات اللغوية الكبرى والتحولات الاجتماعية، إلى التبسيط الشكلي: تراجع العلامات الصرفية، اندثار المثنى، تقلّص الفروق الجندرية إلى نطاق أضيق.

أما النتيجة الأهم التي يعضدها هذان القسمان معًا فهي إنّ نوع الضمير لا يمكن تحديد هذا المفهور إلا عن طريق نظام نحوي مغلق، بل وإنّ هذا التصنيف يمكن أن يؤثر فيه العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين، والسياق، وقدرة القرب، وقدرة السلطة، وهوية الفرد والجماعة. وهذا ما يحول بدينامية الضمير من (أداة إحالة) إلى (أداة تموضع اجتماعي) داخل الخطاب.

وعلى مستوى المقارنة، بيّن البحث أنّ العربية والإنجليزية تقدّمان نموذجين مختلفين لتنظيم الإحالة وتوزيع المعلومات النحوية، فالعربية تميل إلى الترميز الكثيف داخل الضمير، وقابلية الضمير إلى التصريف، وهذا يجعل الكثير من المعلومات النحوية محمولة على العلامة ذاتها، بينما تميل الإنجليزية إلى التقليل من الترميز الصرفي مقابل توسع الاعتماد على البنية الخطية والسياق، وعليه فإنّ (التعقيد)

و(التبسيط) للضميرين ليسا من المتضادين، بل هما استراتيجيتان، فالتعقيد الترميزي العربي مقابل التبسيط الشكلي مع التعويض التركيبي التداولي الإنجليزي.

وبناءً على ذلك، يقترح البحث أن تكون النظرة المستقبلية لفهم ظاهرة الضمائر مزدوجة النظرة؛ إذ (١) يتم تحليل بنية الدلالة التي تحدد السمات المرمّزة صرفية وتركيبيًا، و(٢) يتم تحليل الدلالة التداولية الاجتماعية التي توضح كيفية تحول ظاهرة الضمائر إلى دلالات على الهويّة، والقرب، والسلطة في الاستعمال الفعلي، وإمّا أن تكون المقارنة محسّنة في المستقبل إلى أخرى من اللغات، أو إلى مدونات.

المصادر

اولا: المصادر العربية

ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله (ت ٥٧٧هـ)، ط١' (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، *الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين*، المكتبة العصرية.

ابن جني، عثمان بن جني(ت ٣٩٢هـ)، (د.ت)، *الخصائص*، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن السراج، محمد بن السري (ت ٣١٦هـ)، (د.ت)، *الأصول في النحو*، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة.

ابن يعيش، يعيش بن علي (ت ٦٤٣هـ)، (١٤٢٢هـ/2001 م) *شرح المفصل للزمخشري* ، تقديم إميل بديع يعقوب، ط ١، دار الكتب العلمية.

إسماعيل أحمد عمايرة، ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات الساميّة (دراسة لغويّة تأصيليّة)، ط٢، ١٩٩٣م، عمان/ دار حنين.

السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله (ت٥٨١هـ)، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، *نتائج الفكر في النحو*، ط ١، دار الكتب العلمية.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، (د.ت)، *همع الهوامع في شرح جمع الجوامع* ، تحقيق عبد الحميد هنداوي. المكتبة التوفيقية.

سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، *الكتاب*، ط٣ ،تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي.

أبو المكارم، علي، (2006)، *أصول التفكير النحوي*، ط ١، دار غريب للطباعة والنشر.

بروكلمان، كارل ، (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ، *فقه اللغات السامية* (ترجمة رمضان عبد التواب)، مطبوعات جامعة الرياض.

براجشتراسر، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، *التطور النحوي للغة العربية* (تحقيق رمضان عبد التواب)، ط ٢، مكتبة الخانجي.

فندريس، جوزيف (د.ت)، *اللغة* ، تعريب: (عبد الرحمن الدواخلي ومحمد القصاص). مكتبة الأنجلو المصرية.

فليش، هنري، (1986 م)، *العربية الفصحى: نحو بناء لغوي جديد* ، تعريب وتحقيق: (عبد الصبور شاهين)، ط ٢، دار المشرق.

فرستيغ، كيس،(٢٠٠٣م)، *اللغة العربية(تاريخها ومستوياتها وتأثيرها*)، ترجمة محمد الشرقاوي، ط ١.

هدسن، (١٩٨٧م)، *علم اللغة الاجتماعي* ، ترجمة محمود عبد الغني عياد، مراجعة عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة.

ثانيا: المصادر الاجنبية:

Baugh, A. C., & Cable, T. (2013). A History of the English Language (6th ed.). Routledge.

Comrie, B. (1989). Language Universals and Linguistic Typology. University of Chicago Press.

Crystal, D. (2003). English as a Global Language. Cambridge University Press.

Crystal, D. (2012). The Cambridge Encyclopedia of the English Language (2nd ed.). Cambridge University Press.

Graddol, D. (2006). English Next. The British Council.

Hogg, R., & Denison, D. (2006). A History of the English Language. Cambridge University Press.

McIntyre, D. (2020). History of English: A Resource Book for Students. Routledge.

McWhorter, J. (2011). What Language Is (and What It Isn't and What It Could Be). Gotham Books.

Millar, R. (2012). English Historical Sociolinguistics. Edinburgh University Press.

Trudgill, P. (2011). Sociolinguistic Typology: Social Determinants of Linguistic Complexity. Oxford University Press.

Wales, K. (2003). Personal Pronouns in Present-Day English. Cambridge University Press.